

أذكر حينما قرأت رواية ساق البامبو لسعود السنعوسي، أني قلت في نفسي لن أقرأ بعدها ما هو أجمل وأكثر ملامسة لقلبي منها، فضربت أوتاراً حساسة في دواخلي وهزنتي بعمق، لأعود وأقول ها هي ذي الرواية الأفضل، بفكرة عبقرية ولغة خلابة، يرغمك صدقها على الذوبان أمامها محبةً لقلم الكاتب الفذ، وعدت وقلت مجدداً محال أن أقرأ أبداع منها، بلغتها الفريدة المتمكنة التي أعادنا الكاتب من خلالها لزمان البلاغة والفصاحة، وللعصور الذهبية للغة العربية، فمن أول كلمة ينجح في فصلك عن زمنك، ويجعلك تغرق في ثنايا حكاية، ما أترك ديارى لديره صالحة" فتضحى موسيقى في روحك ترددها بنغمك الخاص، بنفَسك الشعري الخاص، بإيمان واستسلام عميقين. وبعد العلم. ففصل قبل العلم هو التمهيد أو الأحداث التي يجب معرفتها، قبل الشروع في الحكاية الأساسية، و تداعيات ما حصل قبل 40 عاماً، على لسان إحدى الشخصيات الرئيسة وهو "دخيل بن أسمر"، أما فصل العلم فهو قلب الرواية ومحورها الأساسي تحكيه لنا "صالحة بنت أبوها"، وعقليته الجبارة، بلغة ولا أرقى، وتعابير صادقة فيها نفس شعري لا يقاوم: ضاع في الصحراء وأبي لا يضيع أبداً، ولكن لا نجوم في القبور). وفيها أحجية كعادة السنعوسي، ويحللها على هواه، أما ما هي الحقيقة؟ فالعلم عند الله. لكنها نابضة بالحياة لدرجة تجعلك تصدق أنها واقعية، من المرجح الوهمي، تقطع الصحراء مشياً باتجاه الشرق، وهي تحمل ابنها على ظهرها وقد أضناها العطش، فاستلهم منها روايته، بعد أن أضاف إليها ناقة بيضاء مع حوارها، عقب انتشار قصيدة له يتغزل فيها بـ"صالحة" ويهجو عمها شيخ القبيلة، رغم أنه ليس من نَظَمها، لكن وبحكم العادات والأعراف وبأمرٍ من عمها، وفي ليلة زفافهما يدخل الشك إلى قلب "صالح" أن "دخيل" هو من اعتدى على "صالحة"، وهي وحدها من تعرف من هو والده الحقيقي. رغم وجود الابن الأصغر "فالح"، الذي نفهم أنه هو أيضاً يعشق "صالحة" وكان يريدنا لنفسه، وربما يريد التخلص منه. تقوم معركة (الصريف) بين آل الرشيد وحلفائهم العثمانيين، وأمير الكويت وحلفائه، الذي عرف أن الرصاصات التي أصابت "صالح" إنكليزية الصنع، الذين اتهمهم "فالح" بقتل أخيه. يعود "فالح" إلى "صالحة" ومعه بندقيته وبندقية أخيه الإنكليزيتان، ليخبرها أن أخيه قد مات، فتتجه "صالحة" إلى الكويت، إلى دخيل بن أسمر، صحبة ابنها، وناقته "وضى" وحوارها، وعند مشارف الكويت تركز الناقة "وضى" ولد "صالحة" خطأً فيموت، فتقوم "صالحة" بذبح حوار الناقة أمامها انتقاماً منها، فتغافلها الناقة الثكلى وتبرك عليها وتقتلها، ليجد محبوبته وابنها مقتولين، ويعود إلى الكويت ليحفر قبراً لصالحة حتى لا يضيع منه كما ضاع قبر أبيه، أن "دخيل بن أسمر" قد سجن في الكويت، بتهمة قتل "صالحة" وابنها بعد أن وجدا مذبحين، فيقع القارئ في حيرة جديدة لا يعرف معها أين وما هي الحقيقة، بغام، ورغم ذلك فهناك سحر خاص في لغة النص، غير متأكد إن كنت تقرأ شعراً أم نثراً: لا زرع في الأرض، ولا مياه في الشعاب بعد، تأخرت هذا العام. كقوله في وصف حب دخيل لصالحة: أحببتها لأنها كثيرات في واحدة، صعبة سهلة، حرة فاتنة، ذكية غيبية، أحببت وجهها ما رأيت مثله قط، يؤاخي بين ملامح النحيب دمعاً وتقطيبية حاجبين، أو عندما قال: وفي عذوبة صالحة) لم يغرس بها ياساً في النفس، وهذا أمر جيد. ركب فرسه وغادر دونما غرس بذرة أمل، لأول مرة أقرأ ولا أنتبه من هو الراوي. و براعة لغة ما قرأت لها مثيلاً منذ زمن، وعواء نئاب الليل، وحليب نوق بطعم الورد، ونقوش الحناء في كفوف بنات القبيلة، واسمي... اسمي الذي نذرت على نفسي أن أعانق من يذكره أمامي وإن بالخطأ، في مرقدتي على صوت هدير البحر، طفوت ما بين حلم و علم. شبّت النار تناهزني ارتفاعاً، استرسل صمت الذئاب، وسبحان من جعل في النار أمناً وجحيماً) عبارة عن كلمة واحدة. وبعدها تنتهي الرواية، هو من كتب القصيدة التي تسببت بطرد "دخيل بن أسمر" من دياره، و هو أعطى "صالح" خنجره لينتقم من "دخيل" ويتسبب له في جرح دائم في وجهه، وهو قاتل أخيه، وربما هو من أراد أن يجمع "صالحة" بدخيل في الكويت، هذا إن وصلت إليها.